أدب الرحلة الماهية ، البنية والشكل

د. سديـــــــرة سهـــــــــام
المـدرسة العليـا للأساتذة - آسيا جبار- قسنطينة
sihem.sedira@yahoo.fr

الملخص:

عرفت الرّحلة باعتبارها فعلاً إنسانيا تطوّرا و توسُّعا منذ العصر الجاهلي إلى المعاصر ، و هي بكل اتجاهاتها و ميادينها المختلفة سِجِلٌّ حقيقي لمختلف مظاهر الحياة الجغرافية و التاريخية و الاجتماعية و الاقتصادية ، و تكمن قيمتها في تفسير الظاهرات و دراستها ، لتضعها في أيدي الجغرافي أو المؤرخ أو عالم الاجتماع . هذا إلى جانب قيمتها الأدبية ، حيث تعرض جُلَّ مضامينها بأسلوب أدبي يرقى إلى مستوى الخيال الفني ، لِيمْثُلَ أمامنا أدب الرحلات في تنوّع أساليبه من السرد القصصي إلى الحوار .. إلى الوصف ... و غيره ، و في بعض الأحيان ينحو هذا الأدب منحى الجفاف و الصرامة حينما يتناول الموضوعات العلمية ، فهو يتنوع تبعا لتنوّع و غنى مادته ، فهو تارة علمي و تارة شعبي ، و هو طورا واقعي ، و أسطوري على السّواء ، تجتمع فيه المتعة و الفائدة في وقت واحد .

Le résumé :

Le voyage a connu au tant qu'un acte humanitaire et de son rôle de développement un agrandissement remarquable depuis les temps préislamique jusqu'à présent ; ce qui constitue un dossier historique qui représente tous les aspects historique , géographique , sociale et économique .Celle-ci permet d'expliquer, représente tous les aspects historique, géographique, sociale et économique. Celle-ci permet d'expliquer de nombreux phénomènes et les étudier pour qu'elles soit en disposition des savants , en plus , elle a des avantages linguistique car elle est présentée par des termes d'esprit linguistique agréable .

Tous ca , pour nous présenter leurs voyages par un mélange de narration , de dialogue, de description… etc . Ainsi quelques face , cet acte prend l'aspect de sévérité lorsqu'il traite les sujets scientifique .En effet il varis selon la variation du sujet traité scientifique , réaliste , métrologique … ou se rencontre le sus pince et l'avantage . au même temps .

توطئـــــــة:

يعد أدب الرحلة واحدا من المظاهر التي فرضت نفسها من ينبوع البراعة السردية المُصوِّرَة للمشاهد الواقعية . حرص فيها الأديب باستعماله لأساليب متميزة ، تطفح بالإبداع و تنضح بالإمتاع ، و تبوح بمكنوناتها لمن أراد أن يستنطقها ، لِيغدُوَ النص الرحلي ويحتل بذلك مكانته بين النصوص الأدبية ، و الأجناس الأدبية الحديثة على حدّ سواء .

و لا نبالغ إذا قلنا: إنّ الرحلة هاجس طالما شغل الإنسان منذ بدء الخليقة ، مرتبطة به أشدّ الارتباط و بغريزة حب المعرفة لديه، و الرغبة في التفكير و إشباع حاجات النفس والعقل و الروح و البدن والتطلّع إلى الآفاق البعيدة ، حتى في تلك الفترات الأولى كان فيها مستهلكا دون إنتاج ،كانت الرحلة حيلته وهي التي كانت تحقق له أغراضه و حاجاته النفسية .

و قد شغلت الرحلة في الأدب مكانة مهمة في الثقافة العربية ، باعتبارها من أهم الفنون المتجذّرة في هذه الثقافة ، فهي وسيلة من وسائل الاتصال مع الآخر و المثاقفة معه ، لذا اهتم بها العرب منذ القديم، وأكثروا من التأليف فيها، فتنوعت بتنوع أسبابها ومقاصدها العلمية والدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وقد أتيح للعرب والمسلمين – من رجال التاريخ و المهتمين بالجغرافيا ، و المولعين بأدب المسالك و الممالك- أن ينتجوا رحلات كثيرة ازدهرت فيما بين القرن الثالث والتاسع الهجري، عُدّت رحلات رائدة ، استفاد منها الباحثون و الدارسون في مختلف ميادين المعرفة، ثم استمر الإنتاج بخصوبة وثراء أقل ولم يصلنا هذا التراث جميعه، لأنه لم يدوّن تدوينا خاصا و شاملا له أو جامعا ، ثم إن المدوّن من هذه الرحلات فقد منه الكثير وأدمج بعضه في كتب أخرى ، ولم يكتب في رحلات مستقلة مما جعل التقصي لطور النشأة والنمو أمرا عسيرا في حاجة إلى توالي الجهود العلمية المخلصة، هكذا وقبل التعمق في ماهية هذا الفن لابد من الوقوف على مفهومه:

1- ماهية أدب الرحلة:

يمثل أدب الرحلة بكل مستوياته و أبعاده لونا أدبيا له بواعثه وخصائصه الفكرية و الجمالية ، وأهدافه وله أدواته الفنية ورؤاه المضمونية ، وكل ذلك يتشكل مع كل رحلة أدبية وفق غاياتها وقدرة صاحبها ومهارته الأدبية في الملاحظة والرصد ، و مدى تمكنه من تقنية الكتابة ، هذه الأخيرة التي تجعل نص الرحلة يؤخذ حيزا متميّزا في إطار الإبداع و الأدب .

يقول صاحب "معجم المصطلحات العربية في اللغة ولأدب" "إن أدب الرحلات مجموعة من الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك

وأخلاق ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد".[i]

أما الباحث ناصر الموافى فقد عرّف هذا الأدب بقوله: "ذلك النثر الذي يصف رحلة أو رحلات واقعية، قام بها رحال متميز، موازنا بين الذات والموضوع من خلال مضمون وشكل مرنين بهدف التواصل مع القارئ والتأثير فيه".[ii] فشرط الواقعية هو أهم ما يميّز أدب الرحلة و لا مجال للخيال في هذا الفن .

وإذا كانت هذه التعريفات تحدد هذه الرحلات بأدبيتها، فإن عبد الباسط بدر لا يرى ذلك حيث يعرف هذا الأدب بقوله: "إنه ذلك التأليف النثري المطول الذي يتحدث الأديب فيه عن رحلة تجشم مشاقها ومر خلالها بمدن وقرى، وعبر جبالا وأودية وصحاري، وواجه أحداثا ولقي مفاجآت وغرائب لا يعرفها في بيئته.[iii]

فالرحلة إذن حسب رأيه هي أن يتجشم الرحالة المشاق والمصاعب فهو في أغلب الأحيان يعبر الجبال والأودية والصحاري و يخترق المسالك و الممالك ، لكن العبرة في كل هذا هي قدرةُ الأديب على اختيار المشهد و تدوينه ورصده بلغة أدبية ممتعة ، بنوع من الطوبوغرافية الجديدة .

إن الرحلة هي فعل وجود ومعنى كونها فعلُ وجود أنها بحث عن المعنى أو توسيعٌ لدائرة المعنى، وهي أيضا تعبيرٌ عن رغبة الكائن في الإفلات من شرط لم يختره ، لكنه اختارَ له أن ينازلهُ والرحالة مثله مثل عابر السبيل إنّما يختار الإقامة في السفر والترحالَ بحثا عن المغاير والفريد والعجيب ، فالرّحلات تزخر بالملاحظات التي يستغرها و يتعجب منها الرحالة خاصة تلك التي تتعلق بالآثار القديمة و العادات و التقاليد التي تمثل جزءا من هويته و أصالته .

ومن هذا المنطلق فإن الرحلةَ "هي نوعٌ من الحركة وهي أيضا مخالطة للناس والأقوام، وهنا تبرز قيمة الرحلات كمصدر لوصف الثقافات الإنسانية، ولرصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة".[iv] و هذه الحركة لا تختصّ بالجانب الجسدي أو الروحي فحسب ، و إنما بكليهما إذ لابد أن تبدأ من مكان ، و تنتهي في مكان ما بحدود زمن معيّن ، خاصة و أن الإنسان جبل على حب الانتقال و الحركة بحثا عن الرزق الذي يكفل له العيش في الحياة ، فارتباط الرزق بالانتقال و الارتحال أمر بديهي . يقول الله عز و جل : " فامشوا في مناكبها و كلوا من رزقه و إليه النشور" (سورة الملك : 15) .

فالرحلة إلى جانب كونها وسيلة من وسائل جمع المعارف فقد كانت فرصة لاكتشاف الآخر والأخذ عنه، يشير بعض الباحثين بقوله: "إذا قلنا إنَّ فنا من فنون القول العربي يعرض في مضمونه إلى ناحية أو إلى أخرى من نواحي الحياة، فإننا نقول: إن نمط الرحلات يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد"،[v] حتى وصل الأمر بأحد

الباحثين إلى القول إن أدب الرحلة هو أدب الآداب كلها "فإذا كان التمثيل المسرحي أبا للفنون فإن أدب الرحلات هو أبو الآداب، لأنه يحوي كل ألوان وفنون الأدب".[vi]

وتتجلى القيمة الأدبية للرحلات "فيما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني فإذا كان أبرز ما يميز أدب الرحلات تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره، فإن أبرز ما يميزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق، بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى"[vii]، وهكذا تصبح الرحلة مجسدة في امتلاكها لقاسم مشترك مع النص السردي إذ تغدو نصا سرديا بامتياز يمكن أن نطلق عليها "نص مهجن" تلاقح فيها المكتوب بالمرسوم، الفصيح بالدارجي، العربي باللهجي، النثري بالشعري، إنه نصٌ يقوم على توليف (المونتاج) لمختلف الأنظمة المكتوبة والمسموعة والمرئية...

2- الرحلة خطابٌ سردي:

لا شك أن ملامح القصة في أدب الرحلة أمرٌ ترفضه طبيعة الرحلة، وما يتخللها من حوادث ومواقف تستحث الرحالة على التسجيل، - وفق استراتيجية خطابية مناسبة يختارها هوّ - وصياغة هذه الحوادث في أسلوب قصصي يعتمد على الإثارة والتشويق في كثير من الأحوال، و تقديم هذه الأحداث بلغة أدبية ممتعة يمتزج فيها السرد بالوصف - هذا الأخير الذي أصبح مجالا خصبا يستوعب شهوة القص ، بما يقدّمه من متعة ذهنية كبرى شأنه في ذلك شأن النصوص السردية الأخرى كالرواية و السيرة و القصة الفنية ... و غيرها من أشكال التعبير السردية ، و قد يفوقها سحرا و جاذبية ، لأنه ينطوي على حقائق واقعية ، و لأنّ راويها (الرحالة) "هو صاحبها و مجرها و العارف بأحداثها ، المحيط بتفصيلاتها ، لأنه عاشها بجماع فكره و أحاسيسه "[viii] - و ترتبط أجزاء الخطاب كمعمار نموذجي في وحدة قصصية واحدة مكونة نص الرحلة . إذ الرحلة نص قصصي إن لم تتوفر فيها خصائص القصة ، إنها كما يقول أحد الرحالة "قصة ارتحال تظل لها حلاوة القصة... وإن لم يكن لها طابعها.

إن الرحلة خطاب ينجزه مرسل ينتجُ ملفوظاته وفق قواعد وغايات محدودة تتعلق بالمرسل إليه"،[ix] وأبرز ما يميز هذا الخطاب الذي يمكن عده خطابا تواصليا هو التنوع في الأسلوب الذي تتقاطع فيه عناصر التخييل و الرموز ، من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره، إنه يمثل لونا أدبيا فريدا يجمع بعض خصائص القصة ويفيد من أدوات فنية مهمة كالصورة والقصة مما يجعله ميدانا فنيا ثرا، ويتيح له ذلك إيصال رسالته على اختلافها وتنوعها، وبهذا تغدو الرحلة بكل مؤشراتها المعروفة كخطاب حكيا وكل حكي يستلزم وجود أطراف ثلاثة هي: (الذات المحكية (الحاكي الرحالة)، خطاب محكي (الحكاية) (الخطاب الرحلي)، المحكي عنهم (كل المشاهد

الحقيقية التي رأوها)، ويؤكد شعيب حليفي على سردية أدب الرحلة، فيرى أن الرحلة تحضر في نصوص أدبية كعنصر مكون لبنيتها، كالقصيدة والمقامة وسرود الأخبار ومجالس السمر وغيرها، ثم ما لبثت أن أصبحت نوعا أدبيا قائما بذاته، عندما بدأ تدوينها وكتابتها كنص سردي يحكي هذه التنقلات،[x] وبالتالي انتقلت الرحلة من كونها فعلا يتجسد بحدوث الأفعال في زمان ومكان معينين إلى اعتبارها فعلا محكيا يختزل تجربة الفعل السابق ويدونه في شكل سرود بضمير المتكلم.

إن وجود ملامح القصة في أدب الرحلة قد أسهم كثيرا في رواج هذا اللون الأدبي قديما وحديثا، إذ النفس تواقة إلى معرفة ما رآه و ما عاناه واحتك به الرحالة، وبخاصة حينما يكون الرحالة أحد شخوص هذه القصص.

فالرحلة إذن عامل تحفيز على الحكي القائم على الانتقال من مكان إلى مكان آخر ومن شخصية إلى أخرى ومن زمان إلى آخر فهي سردية واصفة انطباعية ذاتية في أجزاء وموضوعية في أخرى تخضع "لقانون الخطاب الشائع من مرسِل ومرسَل إليه ورسالة (سارد، سرد، مسرود له) إلى جانب إخلاصها لتقاليد الكتابة والتأليف والافتتاح والاختتام".[xi]

ولانعدم بعض الصواب إن قلنا: إنّ الرحلة تنتمي إلى العالم السردي، بما فيه من تناوب سرد أفعال ووصف أحوال، وشخص رحال ينجز تلك الأفعال أو يحكيها، وراو يسند إليه الكاتب الدور التقني في استحضار الأقوال والأفعال التي تنجز من قبل فاعلين في أزمنة معينة وأمكنة متعددة وفي شكل منفتح يتسع للتجارب الواقعية والمتخيلة الماضية والحاضرة والمستقبلية. و من هذا المنطلق يتشكّل خطاب الرحلة ، الذي يختط له خطا متميّزا في اختيار الأسلوب و تقديم واقع المرتحل في ثوب أدبي . إنه مُنجَزٌ فردي يكتسب شرعية وجوده من المعرفة اللسانية كونه سلسلة من النصوص تتحقق من خلال التلفّظ و التأثير على الغير (وظيفة تواصلية) ، تنتظم الكلام الأدبي المتميّز و تعطي فضاء الرحلة شكلا خاصا .

3- العجائبية في أدب الرحلة:

تعد العجائبية في أدب الرحلات ظاهرة تخدم السرد و تحتفظ بالتوتر ، إذ أنّ حضور العنصر العجائبي يتيح تنظيما للحبكة ، مما يخلق أثرا خاصا في القاريء خوفا أو رعبا ، اندهاشا أو استعظاما .

و قد ربط الباحث "شعيب حليفي" مفهوم العجائبي (fantastique) بمفاهيم أخرى ويجعله عنصرا متعدد المسارات تتضمنه العلوم الإنسانية والاجتماعية، فهو عنده "يستقطب كل ما يثير الاندهاش والحيرة في المألوف واللامألوف"[xii]، ويكمن كذلك في تفسير التردد والحيرة التي تحصل للشخص جراء ظاهرة أو حادثة غريبة

تتخذ مظهرا يتجاوز الطبيعي، ويمكن كذلك أن نقول: إن العجائبي هو ذلك التردد أو الحيرة أو الاندهاش الذي يعتري الشخص أمام لا مألوفية ما يتلقاه، إنه تقنية يعمد إليها الراوي في حكيه لغرض المتعة والتشويق وخرق قوانين الواقع.

إن المكونات العجائبية تأتي في القص القديم بطرق وأشكال مختلفة، الأمر الذي أدى إلى انضوائها تحت مصنفات مختلفة، فمن الأسطورة إلى الحكاية الخرافية والبطولية والشعبية إلى القصة الصوفية وأدب الرحلات و– العجائبي– في كل ذلك يبدى مقدرة فكرية وإبداعية في التفاعل مع الواقع والمشاكل السائدة فيه.

أما عن تجلي العجيب في أدب الرحلة فلأن الرحالة ارتادوا الأصقاع البعيدة مرتع كل غريب وعجيب وفي هذا يقول إسماعيل العربي: "إن عنصر العجيب الغريب كثيرا ما يطغى على رواية الرحالة، ولا سيما الذين تجولوا في الأصقاع البعيدة، بحيث تمتزج فيها الحقيقة بالخيال، ويصعب معها الفصل بين الجانب الواقعي والجانب الخيالي"[xiii]، ناهيك أن العجائبي يحقق غايات معينة من خلال جملة من الوظائف الخاصة به، لعل أبرز هذه الغايات التي ينشدها بروزه كظاهرة متميزة هي الامتناع والمؤانسة وعلى هذا فالرحالة يلجأ دائما إلى المبالغة وإضافة الأشياء العجيبة والغريبة لرحلته وقصته من أجل تحقيق هذه المتعة لمستمعيه، وقد حدد تودوروف وظائف العجائبي داخل الأثر الأدبي بقوله: "يخلق العجائبي أثرا خاصا خوفا أو هولا، أو مجرد حب استطلاع الشيء الذي لا تقدر الأجناس والأشكال الأخرى أن تولده.

ثانيا: يخدم العجائبي السرد ويحتفظ بالتوتر حيث إن حضور العناصر العجائبية يتيح تنظيما للحبكة منضغطاً بصورة خاصة وأخيرا فإن العجائبي من النظرة لأولى وظيفة تحصيل حاصل إذ يسمح بوصف عالم عجائبي وهذا العالم ليس له مع ذلك حقيقة خارج اللغة، فالوصف والموصوف ليسا من طبيعتين متباينتين"[xiv]، هكذا إذن حملت كتب الرحالة العرب بين طياتها متنا سردياً غنياً بحضور العجائبي فلطالما كان هؤلاء الرحالة يجولون البلدان والأمصار بحثا عن الغريب والفريد من أجل التسلية والمتعة "فالرحلة من جهة كونها حركة سفر وانتقال إنما تترجم الرغبة في العبور من الهنا إلى الهناك من الأليف إلى المجهول، من المحدود الضيق الخانق إلى المطلق ،الرحلة ليست حدث سفر وتجوال في المكان أو الوهم والخيال فحسب، بل ترجمةٌ فعليةٌ لرغبة الكائن في الخلاص من شرطي الزمان والمكان والعدم"[xv]

إن الرحالة يعلم يقينا أن تجربته لا يمكن أن تنال القبول والإعجاب إلا متى عوّل في سرد وقائع رحلته على ما يسمى بقانون التعجيب، فالرحلة لا يعرف إلى الاستقرار سبيلا، فهو دائم البحث عن الفريد والعجيب والمغاير فلا عجب إذن أن يأتي أدب الرحلة غنيا بحضور العجائبي وهذا ما نلمسه جيدا في رحلة "شمس الدين أبي عبد

الله مُحَمَّد أبي طالب الأنصاري الصوفي" في رحلته (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) والتي ضمنها صورا عجيبة عن مخلوقات فريدة من نوعها، وعن الأرض والبحر والعيون والآبار والينابيع العجيبة والحيوان النادر الشكل، إضافة إلى رحلة أبي حامد المازني الأندلسي الغرناطي" والمسماة ب (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب) والتي يظهر فيها ميل الرحالة الشديد إلى الغرائب والعجائب[xvi]، وقد قسم أبو حامد الغرناطي مصنفه إلى أربعة أقسام: عجائب الدنيا، وساكناتها من الإنس والجان، عجائب البلدان ومآثرها عجائب البحار والجزر، عجائب الأضرحة والقبور[xvii]، فمثلا الباب الموسوم ب: "في صفة البحار وعجائب حيواناتها" فضاءاتها تعد على مستوى التحفة مجالا لتدفق أسطوري غزير وهي فضاءات توسم في كثير من الأحيان بالظلامية والقتامة (كبحر الظلمات- المحيط الأطلسي)، كناية عن الغموض الأسطوري الذي يلفها، تمثل مناطق محظورة تخضع لقانون "انعدام قابلية الاختراق L'impénétrabilité"[xviii] وإضافة إلى رحلة أبي حامد الغرناطي هناك رحلة ابن فضلان "التي كانت من مدينة السلام حتى بلاد الترك والصقالبة والتي نالت شهرة كبيرة باعتبارها نمطا أدبيا بعيدا عن النمط الجغرافي"[xix] بسبب احتوائها على كم هائل من العجائب والغرائب التي اهتم بها الرحالة "ابن فضلان" قابضا على كل غريب وعجيب صادفه من عادات وتقاليد الأمم المختلفة وصور الطبيعة المتعددة.

كما كانت رحلة (المحاسبي) الموسومة ب: (التوهم) هي الأخرى رحلة العجيب والغريب وهي عبارة عن رحلة متخيلة من الأرض إلى السماء رحلة خيالية مذهلة في عالم ما بعد الموت، تبدأ من اللحظة الحاضرة إلى ما سيكون في نهايات الزمان يصور فيها "المحاسبي" لحظة النزع عندما يتراءى ملك الموت مقرا العزم على خطب عظيم ويشرع في انتزاع الروح من الجسد[xx]، ليأتي بعدها عذاب القبر بكل ما يحمله من رهبة وترويع، هكذا إذن استطاع أدب الرحلة وهو "داخل عباءته العجائبية أن يؤسس لنفسه فضاء غريبا له جاذبيته وحجمه وفنيته"[xxi] من خلال تخطي عتبة العادي والمألوف والمتعارف، ما يجعل من الكلام يتشكل جامعا إلى اللذة الاعتبار، وإلى الإمتاع المؤانسة.

4- الرحلة واقع تاريخي أم خيال فني؟

أدب الرحلة أدب يحرز على إعجاب كثير من غير العرب لطابعه الفني الذي يمزج الحقيقة بالخيال والحلم بالواقع ولا شك أن الرحلة الواقعية التي يقوم بها الشخص فعلا هي الأصل في أدب الرحلة التي ينبغي أن يتوفر فيها شرطان:

" أولا: أن يكون من يكتب عن الرحلات رحالا بطبعه محبا للرحلات.

ثانيا: أن يكتب بالأسلوب الذي يجعل وصفه للرحلة يعكس روح الرحلة والرغبة التي تتملكه للقيام بها".[xxii] وهكذا يغدو أدب الرحلة مرتبطا بالتجربة المنجزة من قبل شخص راغب، له من الإمكانات ما يجعله يستفيد من تجارب الآخرين المسموعة والمشاهدة، مع القدرة على ابتكار ما يميز ذات الرحال أثناء تفاعله مع الحدث والزمان والمكان على أن يصوغ ذلك بلغة تحمل القواسم المشتركة في عصرها لتؤدي الوظائف المرتقبة من نص أدبي.

وترتبط الرحلة بالأحداث الماضية والحاضرة وهذا ما يجعلها على علاقة بالتاريخ وإن كان المؤرخ يستطيع إبعاد العجائب في كتابه دون أي تردد، ولكن الرحالة لا يستطيع أن يفعل هذا مهما كان صادقا وأمينا في مشاهداته، وتكمن العناصر التاريخية في الرحلة في عدة موضوعات معالجة وهي: البنية الاجتماعية المتعلقة بأحوال الناس وعاداتهم وتقاليدهم، البنية الفكرية التي ترصد فيها العقائد والأديان والمذاهب، أما من حيث العناصر الذاتية فتتجلى في المشاعر والوجدان والمواقف من الآخرين ومن الطبيعة وفي التفاعل الذاتي مع الأحداث والاستجابة لها فنيا.

إنّ أدب الرحلة وهو واحد من الفنون الأدبية ملزم باستثمار المعطى الفني وقف ضوابط معينة، فإذا كان الخيال مثلا يسهم في إيجاد وإثراء فنون أدبية كالقصة والرواية، فإن نطاقه في أدب الرحلة محدد في تلوين المشاهد والحوادث إلى جانب لجوء الرحالة إلى فنيات القصة، وهي اللون الأدبي الذي يمكن أن يفي بحاجاتهم في رصد الحوادث الرحلية بما يتخللها من إثارة وتشابك وتعقد، إلا أن إفادتهم من القصة كانت في حدود ما يسمح به الحدث الحقيقي، فهم لم يسمحوا لخيالاتهم بخلق الحوادث بقدر ما سمحوا لها في تلوينها.

هذا وكانت الطرفة والسخرية ميدانا للتلوين الأسلوبي لدى الرحالة، فمتى أحس هذا الأخير أن السرد الرحلي قد يؤدي إلى الملل، فإنه يستثمر لون الطرفة لتلوين أسلوبه ومضمونه، فالتلوين بالطرفة هو الأداة المناسبة لرصد بعض المواقف الجادة وتحميلها أبعادا طريفة تارة وساخرة تارة أخرى.

ولا زالت الرحلة وعالمها المتنوع مدعاة لرؤية الحوادث، والتقاء الشخصيات المتنوعة فالرحالة ليس إنسانا عاديا فهو ذو قوة نفسية كبيرة وطاقة حضارية وعلمية عالية، كل ذلك يعطيه منحا خاصا في اختراقه للأقاليم ومخالطته للأمم والثقافات، ونص الرحلة هو نص مواز للتاريخ أو بمعنى آخر الرحلة هي واقع تاريخي يمتص منه ويجري مجراه رغم أنه في بعض الأحيان يفارقه وينفصل عنه لما يتعلق الأمر "بالمبالغة في القصد وسرد العجائب ورواية الأساطير والغرائب"[xxiii]، وهو ما يعمق أكثر فكرة أدبية الرحلة فنص أدب الرحلة هو نص أدبي بالدرجة

الأولى. وتتجلى هذه القيمة الأدبية " في ما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني".[xxiv]

5- الرحلة والإثنوغرافيا:

كلمة إثنوغرافيا هي كلمة معربة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم، والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة"[xxv] و تهتم الإثنوغرافيا بتناول جميع أنماط السلوك التي تكوّن ثقافة ذلك المجتمع أو تلك الجماعة التي عادة ما تنتمي إلى مجتمع محلي كالعشائر مثلا . وتربط بين الإثنوغرافيا والرحلة وشائج إذ تكمل الواحدة الأخرى، فقد كانت الرحلة خزانا راصدا لثقافة الإنسان، بالتعرّف على ماضيه و السمات و الظواهر الثقافية التي تمثّله . يحدد موضوع الإثنوغرافيا انه "الوصف الدقيق والمترابط لثقافات المجتمعات الإنسانية"[xxvi]، حيث قام الرحالة من هذا الجانب بمسح خصائص الثقافات المختلفة كالعادات والتقاليد والمطعم والمشرب والملبس والمعاملات اليومية والممارسات الدينية ويندرج ضمن ذلك دراسة "البيروني" لثقافة الهند التي مكث بها زهاء الأربعين سنة"[xxvii]وبذلك يعد أدب الرحلات إحصاء إثنوغرافيا في غاية الإفادة لدراسة الثقافة والحضارة الإنسانية و دراسة طبيعة المجتمع الانساني و خصائصه ، من منطلق أنثروبولوجي، حيث تزخر مؤلفات الرحالين العرب خاصة بالعديد من النصوص التي يمكن عدها مضامين إثنوغرافية ، اهتم فيها الرحالة بوصف الأقاليم وطبائع السكان ووصف العادات المتوارثة والتقاليد و الأعراف وأساليب حياة المجتمعات و ممارساتهم ، ويعد الرحالة "المقدسي" مثالا للرحالة الإثنوغرافي في مؤلفه الموسوم ب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) زاوج فيه الرحالة بين الحس الإثنوغرافي والنزعة الأدبية، يقول في النص التالي الذي يربط فيه بين البيئة والناس وهو يصف إقليم الشرق: "هو أجل الأقاليم وأكثرها أجلة وعلماء، ومعدن الخير ومستقر العلم وركن الإسلام المحكم وحصنه الأعظم. ملكه أجل الملوك وجنده خيرا الجنود، قوم أولو بأس شديد ورأي سديد، واسم كبير ومال مديد، وخيل ورجل وفتح ونصر وقوم، كما كتب إلى عمر لباسهم الحديد وأكلهم القديد وشرهم الجليد، ترى به رساتيق جليلة وقرى نفسية، وأشجارا متلفة، وأنهارا جارية ونعما ظاهرة ونواحي واسعة ودينا مستقيما، وعدلا مقيما في دولة أبدا منصورة مؤيدة، ومملكة جعلها الله عليهم مؤيدة، فيه يبلغ الفقهاء درجات الملوك، ويملك في غيره من كان فيه مملوك هو سد الترك وترس الغز وهول الروم، ومفخر المسلمين، ومعدن الراسخين، ومنعش الحرمين، وصاحب الجانبين وجزيرة العرب أوسع منه رقعة غير أنه أعمر منها وأكثر كورا وأموالا وأعمالا"[xxviii] هكذا كان المقدسي محيطا إحاطة جيدة بأحوال الناس ومعارف عصره الأمر الذي انعكس على رحلته هذه التي وصف فيها البشر ولغتهم وتقاليدهم وعاداتهم وبيئتهم وطبائعهم".[xxix] التي

كان لها دورا وظيفيا بارزا في حياتهم الاجتماعية . إذن يتلاحم أدب الرحلة مع الإثنوغرافيا إذ لا يمكن فهم الثقافة المعاصرة لشعب معين إلا من خلال عمل مشترك بين الإثنوغرافيين والرحالين خاصة إذا تعلق الأمر بالثقافة العربية المعاصرة ، و معرفة هوية المجتمع العربي و شخصيته القومية .

[i]: مجدي وهبة وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ط2 ، 1948 ، ص 16.

[ii]: ناصر عبد الرزاق الموافي: ادب الرحلات عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المعربة ، ط1 1995، ص27.

[iii]: عبد الباسط بدر: أدب الرحلات، مجلة الأدب الإسلامي: رابطة الأدب الإسلامي العالمية، بيروت، م01، العدد03، 1415هـ، ص12.

[iv]: حسين محمد فهيم: أدب الرحلة، عالم المعرفة، الكويت، دط 1978، ص15.

[v]:حسني حسين: أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط2، ص06.

[vi]: فايز فرح: رحلات وحكايات، دار المعارف القاهرة، ط1، دث، ص05.

[vii]: فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي مكتبة الدار العربية للكتاب، ط1، 02، 2001، ص 23-24.

[viii]: فؤاد قنديل ، أدب الرحلة في التراث العربي، ص 13.

[ix]: سعيد يقطين: السرد العربي، مفاهيم وتجليات، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص 200.

[x]: ينظر: شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص 120.

[xi]: عبد الرحيم مودن: أدبية الرحلة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1996، ص30.

[xii]: شعيب حليفي: هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل، دار الثقافة ،ط1، الدار البيضاء، 2005، ص 189.

[xiii]: إسماعيل العربي: دور المسلمين في تقدم الجغرافيا الوصفية والفلكية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1994، ص113.

[xiv]: تزيفيتان تودوروف: موضوعات العجائبي (مدخل نظري)، ترجمة الصديق بوعلام في مجلة دراسات سيميائية أدبية، العدد 1، فاس المغرب، 1987، ص 137.

[xv]: فراس السواح: حركة المسافر وطاقة الخيال دراسة في المدهش والعجيب والغريب، مجلة المقتطف، العدد 12، 1974، ص53.

[xvi]: ينظر: إسماعيل العربي، تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر، الشركة الوطنية للكتاب الجزائر 1986، ص 43.

[xvii]: ينظر: توفيق فهد العجيب في الحيوان والنبات والمعدن من كتاب العجيب والغريب في إسلام العصر لوسيط) ت: عبد الجليل محمد الأزدي، ط01، الدار البيضاء 2002، ص 112.

[xviii]: حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي ، " الفضاء . الزمن . الشخصية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط01 ، 2000، ص37.

[xix]: ناصر عبد الرزاق الموافي: أدب الرحلات عند العرب، ص 267.

[xx]: فراس السواح : حركة المسافر وطاقة الخيال، ص60.

[xxi]: الطاهر روابنية : السيميائية والنص الأدبي ، أعمال ملتقى معهد اللغة العربية وآدابها جامعة عنابة باجي مختار ، الجزائر، 1995، ص138.

[xxii]:أنجيل بطرس : الرحلة في الأدب الإنجليزي ، مجلة الهلال ، دار الهلال مصر ، عدد يوليو 1975 ، ص 52.

[xxiii]: فؤاد قنديل : أدب الرحلة في التراث العربي ، ص 78.

[xxiv]: حسن محمود حسين : أدب الرحلة عند العرب ، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ، دط ، 1968 ، ص 01.

[xxv]: حسين محمد فهيم : أدب الرحلة ، ص 43-44.

[xxvi]: المرجع نفسه : ص 44.

[xxvii]: فؤاد قنديل أدب الرحلة في التراث العربي ، ص 300.

[xxviii]: المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص 260 ، نقلا عن حسين محمد فهيم أدب الرحلة ، ص 47.

[xxix]: المرجع نفسه ، الصفة نفسها.